

الدين والدولة في عهد النبي

للدكتور محمد عبد العزيز نصر

— ١ —

لقد كتب الكثيرون من الكتاب والمفكرين في مشارق الارض ومغاربها عن الاسلام . ولكن مجال الكتابة منه لا يزال واسعا امام المفكرين في الحاضر والمستقبل . ذلك لان كل جيل يفسره في ضوء تجربته الخاصة . وهانحن في عصرنا الحاضر الذي امتاز بثورة اجتماعية فرقت المجتمع الدولي الى معسكرين شرقي وغربي ، بل فرقت المجتمعات المحلية ذاتها الى طبقات يدين بعضها بمذهب الشرق والآخر بمذهب الغرب ، نرى الاسلام يعاد تفسيره تارة لصلحة الغرب واخرى لصلحة الشرق ، كما نرى بعض أبناء المسلمين يتحمسون له حماسة تجعلهم يعدونه نظاما قائما بذاته لاهو بالشرقي ولا هو بالغربي وانما هو قوة متفردة يطمحون الى بعضها من جديد لينقذوا بها انفسهم وبلادهم مما يحيط بها من عوامل الاضطراب العالمي والمحلي .

وليس من غرضنا في هذا المقال ان نعالج التفسيرات السياسية الحديثة للاسلام وانما نشير الى بعض اتجاهاتها كي نبين الاهمية الجوهرية لمثل هذا الموضوع في مثل البقعة التي نعيش فيها من العالم . فالباحث الهندي « الشيخ مشير حسين قدوائى » في كتابه : "Pan-Islamism and Bolshevism" يرى في الاسلام شيوعية اسبق واسمى من شيوعية البلاشفة في روسيا ، فهو دعوة الى « توحيد الله ، وأخوة الانسان ، ورفعة البشرية الاخلاقية والروحية وانقاذها الاقتصادي ، والتقدم العقلى والمادى والحرية السياسية لكافة الامم وكافة الشعوب ، والغاء الملكية الخاصة والاستغلال والظلم والاستعباد في كل مكان وفي جميع العصور » (١) ومن الطريف ان نرى شيخا آخر من شيوخ الاسلام المصريين حين يسأله مندوب من ممثلى المعسكر الغربى عن وجهة نظر الاسلام من الشيوعية يعطينا تفسيرا مناقضا لتفسير الشيخ الهندي . فصاحب الفضيلة الشيخ عبد المجيد سليم حين كان شيخا للجامع الازهر قال « ان الاسلام واق من الشيوعية بما حوى من مبادئ خطيرة في تشريعاته ، لاتجعل

(١) جريدة المصرى عددى ٢٧ مايو سنة ١٩٥١ و ١٥ يولييه سنة ١٩٥١

للسيوعية وغيرها من الدعوات المتطرفة طريقا الى قلوب الناس ، فهو يأمر بالتضامن والتكافل الاجتماعى الى ابعد مدى يتصوره الانسان . ولكنه في الوقت نفسه لا يتعرض للملكيات ولا يحد منها . بل يفرض على هذه الملكيات للدولة من الحقوق المالية ما يراه كفيلا بقيام بيت المال او وزارة المالية لرعاية مصالح الدولة وحقوق الشعب » (١) ولقد ترجم عبد الرحمن عزام الامين العام للجامعة العربية هذا الراى الذى يمثله قول الشيخ عبد المجيد سليم الى لغة الساسة الدولية التطبيقية حين صرح فى اللحظة التى كان يسعى اثناءها وزير خارجية مصر ، الدكتور محمد صلاح الدين ، للحصول على تأييد روسيا لمطالب مصر القومية ، ببيانه فى باريس عن الاسلام والشيوعية اذ قال : « ان الاسلام كان دائما حاجزا منيعا دون تطرق السلافيين نحو الجنوب . » ثم قال « وسنبقى مخلصين لديننا واعداً ثابتين للشيوعية » (٢) .

وان كان راى شيخ الجامع الازهر السابق وراى الامين العام السابق للجامعة العربية هما راى رجلين يشغلان منصبين رسميين ، فهناك من الآراء ما يعبر فى مصر ذاتها عن وجهة نظر متطرفة فى فهم الاسلام والدولة . وهذا التطرف يميل تارة الى اليسار وتارة اخرى الى اليمين . ويبدو هذا الاتجاه واضحا اذا ما اطلعنا على كتابى « من هنا . نبدأ » (٣) و « من هنا نعلم » (٤) ونحن لانريد ان نتبع تحليل الادب السياسى الاسلامى المعاصر فى هذا المقام ، اذ غاية ما نبتغى من هذه المقدمة لبحثنا فى الدين والدولة اثناء عهدالنبي هى توجيه النظر الى مثل هذا البحث فى بلاد ظهر فيها « الاخوان المسلمون » واحست احساسا مباشرا بقيام دولتى « الباكستان » و « اسرائيل » (٥) على اساس لا يعرف الفصل بين الدين والدولة .

— ب —

فبعض الحركات الاسلامية المعاصرة اخذت تنظر الى الوراثة لتعرف كيف تسير الى الامام . وذلك بعد ان تبين للعالم كله ان النظر الى الامام فحسب لم

(٢) جريدة الاهرام عدد ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٥١

(٣) خالد محمد خالد - من هنا ... نبدأ

القاهرة ١٩٥٠ (الطبعة الرابعة)

(٤) محمد الغزالي - من هنا نعلم - القاهرة ١٩٥٠

Joseph Dunner — *The Republic of Israel, Its history and promise.* New York, Whittlesey House.

بعد ذلك الحلب الوضاء الذي تمثل فيه مفكرو الثورة الفرنسية نعم الهادي للبشر الى بلوغ الفردوس على الارض . فالعالم لايسر في تقدم مطرد نحو الكمال كما شاع بين المفكرين في يوم من الايام ، بل يتعرض الآن لخطر العودة الى عصور التوحش والهمجية . ومن ثم يكف بعض المسلمين الآن خاصة في باكستان وفي مصر على التنقيب في تجربتهم التاريخية عليهم يجدون فيها بذور الصلاح والوضوح لحياة مضطربة مبهمة . وفسفتهم في ذلك قائمة على ان الفرد منا اقدر على الافادة من تجربته الخاصة منه على الافادة من تجربة جاره . وكذلك الشعوب . فالشعب الاسلامي يستطيع ان يدرك من ضروب القوة في المجتمع الاسلامي الاول ما قد لا يستطيع ادراكه في حياة المجتمعات الاخرى قديمها وحديثها .

ونحن نقتصر هنا على ان نعرض لثلاثة مبادئ سياسية تتجلى في نشأة الدولة العربية اثناء عهد الرسول . وتطابق الى حد بعيد على التتالي ثلاث فترات نرى تقسيم عهد الرسول اليها : -

(١) العشر سنين الاولى من البعثة وهي فترة تكوين الجماعة الاسلامية في مكة ،

٢١ ، والثلث سنين التي تعقبها وهي فترة تأسيس دولة المدينة ،

(٣) ثم العشر سنين التي تتم بها بعثة الرسول وحياته وهي فترة تكوين الدولة العربية القومية .

وهذه المبادئ الثلاث هي :

(١) مبدأ الوحدة الاجتماعية (٢) ومبدأ المسؤولية السياسية والاجتماعية (٣) ومبدأ القوة .

(١)

امامبدأ الوحدة الاجتماعية ، فيبدو قويا أخذا مع ظهور الدعوة الاسلامية . ويسر فعله في بدء بادىء الامر ولكن يسر سرا وثيقا اكيدا . اذ اخذ المؤمنون بالدين الجديد في مكة يقتربون بعضهم من بعض ويكونون جماعة مترابطة بأواصر الاسلام ترابطا تكاد تختفى حلقاته وتندمج ذراته فيصبح وحدة تامة ، ان تميز افرادها فتميز اعضاء الجسم الواحد . وما ان تكونت الجماعة الاسلامية الاولى من افراد سهل احصاؤهم عدا على الاصابع حتى وضعت نواة المجتمع الاسلامي ونواة الدولة الاسلامية في آن واحد . فرائنا ان المجتمع

الجديد لا يعتمد في بنيانه على الاعداد المتراصة من البشر بل على العقول المتشابهة في التفكير والارواح المتحدة في الشعور ، وانه لا يستمد حياته من النشاط الذي اعتاد مزاولته العرب قبل الاسلام ، بل يستمدتها من ينبوع الدين الجديد الذي ينسج عقول اتباعه وارواحهم في نسيج متماسك متجاوب . لقد قفز المجتمع الاسلامي قفزة مباشرة الى الوجود لانه اكتسب وحدة سريعة عن طريق الوحدة العقلية التي امتاز بها المسلمون والتي كانت الاساس المكين للمجتمع الاسلامي . ومن ثم تؤيد نشأة الجماعة الاسلامية وظروف تكوينها رأى المفكرين السياسيين الذين يعالجون شئون المجتمع معالجة سيكلوجية فيعرفون المجتمع بأنه ترابط عقلى بين الافراد قبل ان يكون جورا محليا أو تعاقد اجتماعيا فحسب . (١)

ولقد كان هذا الترابط العقلى بين اعضاء الجماعة الاسلامية الاولى ، العامل الاول الذى جعلهم قوة منسقة على المجتمع المكي يخشى خطرها على نظام مكة المستتب سياسيا واجتماعيا واقتصاديا . فالدين الاسلامي لم يدع الناس جميعا الى عبادة اله واحد والى تحطيم آلهة العرب من الاوثان مقتصرًا بذلك على شئون الروح فحسب ، بل مست دعوته شئون الحياة ونظامها كذلك (٢) . ولهذا رأى المشركون من أهل مكة أن ثورة الاسلام الروحية لا بد من أن تترجم الى ثورة اجتماعية . فهو دين يخالف معتقداتهم التى ورثوها عن آباءهم ويتحدى في الوقت نفسه نظمهم الاجتماعية التى تستند الى هذه المعتقدات . ولذا لم يسمهم الا أن يحاربوه . ولو فعلوا غير ذلك لعجبنا منهم . اذ ليس آلم للنفس من تقبل فكرة جديدة كما يقول والتر باجت (Walter Bagehot) (٣) . والانسان جبل على مقاومة كل ما يهدد صالحه واضطهاد ما يخالفه . ولقد تأيدت مخاوف قريش على معتقداتها ومجتمعها . فالمجتمع الاسلامي الاول قد تكون من الابناء والآباء والاحوة والامهات والزوجات ، وتكون من الفقراء والاعنياء ، والضعفاء والاقوياء ، وتوحد بوحد الايمان بالله ووحدة الاعتقاد بمبادئ الاسلام السامية .

واول ما تقابل هذا المجتمع الموحد الموحد تقابله في مشاهد المحنة التى

-
1. — Aristotle : *Politics (Book III)*. (1)
 2. — Walter Bagehot : *Physics and Politics*. (2)
 - T. W. Arnold — *The Preaching of Islam (Chapter II)*. (3)
 - London, Luzac and Company, 1935.
 - Walter Bagehot : *Physics and Politics P. 166*. (3)
 - (in Works Vol. VIII edited by Mrs. Barrington).

كانت ولا تزال مواقف الاختبار لمبلغ تماسك المجتمعات وسلامة تكوينها : فاضطهاد قريش لاتباع الدين الجديد ممن لاحول لهم في دفع العدوان المتزايد يوما بعد يوم اضطر النبي الى ان يشير عليهم باختيار حل سلبى - الا وهو الهجرة الى الحبشة التماسا لحمى النجاشي (٤) . وهذا اول حدث انفصالى من نوعه في مكة . فما كان من المكيين الا ان ارسلوا في اثرهم سفيرين - عبدالله بن ابي ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل - يحملان الهدايا الى النجاشي وبطارقته ليسلم المسلمين اليهما ويردهم عن جواره وبلاذه الى موطنهم الاصلى حيث يلقون جزاءهم على ما فعلوا . وهنالك امام محكمة النجاشي تسمع في وضوح رأى آل من الفريقين في الآخر . وابتعد من ذلك فاننا نكتشف الاسس التى قام عليها المجتمع الاسلامى ، وتبين صورة مقارنة بين النظام الاجتماعى القديم والحديث . فسفيرا قريش يقولان عن اللاجئين المسلمين :

« ايها الملك انه قد ضوى الى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لانعرفه نحن ولا انت وقد بعثنا اليك فيهم اشراف قومهم من آبائهم واعمامهم وعشائيرهم لتردهم اليهم فهم اعلى بهم عينا واعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه . »

اما عن اللاجئين المسلمين فقد ناب عنهم في التحدث الى النجاشي « جعفر بن ابي طالب » فقال له :

« ايها الملك كنا قوما اهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الارحام ونسئ الجوار ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وامانته وعفافه فدعانا الى الله لتوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والارثان وامرنا بصدق الحديث واداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور واكل مال اليتيم وقذف المحصنات وامرنا بالصلاة والزكاة والصيام . . . فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده لانشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا واحلنا ما احل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الاوثان من عبادة الله وان نستحل ما كنا نستحل من الخبايا فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ورجبنا في جوارك ورجونا ان لانظلم عندك ايها الملك . »

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (ج ١ ذكر المهاجرة الاولى الى ارض الحبشة)

ومن هذا الحوار الذي يروى على لسان المهاجرين يظهر جليا أن المسلمين منذ البدء كانوا لا يشعرون بتماسك جماعتهم فحسب ، بل يشعرون أيضا أن هذا التماسك قائم على مبادئ روحية واجتماعية أرقى من المبادئ التي يستند إليها المجتمع المكي . ويكفى أن نبرز من القول المنسوب إلى المهاجرين اشارتهم إلى أن في المجتمع المكي كان « يأكل القوى الضعيف » حتى ندرك مدى اعتزاز المسلم بمجتمعه الذي أصبح ينتسب إليه ، ومدى استمساكه ببقائه مهما جلب عليه ذلك من صنوف الارهاب والتعذيب ، بل كان الاضطهاد في ذاته سببا سلبيا اضيف إلى الاسباب الإيجابية التي جعلته يفتنى فناء تاما في النظام الاسلامي الروحي والاجتماعي .

— ٢ —

وان كان مبدأ الوحدة الاجتماعية بين المسلمين هو المبدأ السياسي الاول الذي نلاحظ فعله في تكون الجماعة الاسلامية أثناء العشر سنين الاولى من البعثة ، فذلك لانه يمهّد إلى فعل المبدأ الثاني وهو مبدأ المسؤولية السياسية والاجتماعية . فلقد ظهر مبدأ المسؤولية السياسية والاجتماعية ظهورا مبرز الدولة الاسلامية في - ١ - فترة التحضير لقيامها عن طريق المفاوضة والتعاقد مع أهل يثرب - ٢ - وفترة التنظيم بعد تأسيسها فجلا في المدينة .

١ - أما فترة المفاوضة بين النبي وبين من لقيهم في مواسم الحج من الأوس والخزرج من أهل يثرب ، فقد انتهت كما نعلم ببيعته العقبة الاولى والثانية . إذ اجتمعت كل الظروف المواتية التي تجعل من يثرب دولة المدينة الاسلامية الاولى . فاهلها من قبائل الأوس والخزرج كانوا في صراع دائم مستمر كان آخر أيامه يوم بعث الذي قتل فيه غالب رؤسائهم ولم يبق الا عبد الله بن ابي بن سلول من الخزرج وابو عامر الراهب من الأوس . ولذلك كانت عائشة تقول « كان يوم بعث يوما قدمه الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم . » (١) ولقد خلق هذا الصراع جوا لا يطاق من الخوف المستمر من الموت يذكرنا بجو الحياة البدائية التوحشة الذي يصفه « توماس هبز » (Thomas Hobbes) (٢) ويفترض دفعه الأفراد إلى تولية حاكم من بينهم يتنازلون له مختارين عن سلطاناتهم وحريرتهم في سبيل ضمان الامن والحياة لهم . وانا لنلاحظ في الظروف التاريخية لنشأة دولة المدينة تشابها بينها وبين ظروف نشأة الدولة الافتراضية

(١) محمد الخضري - نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ص ١٠٠ طبعة رابعة ، ١٣٢٧ هـ

Thomas Hobbes — *Leviathan*.

(٢)

عند « هبز » ، والتي تقوم في رأيه على العقد الاجتماعي . فما ان دعا سيدنا محمد من قائلهم من اهل يثرب الى اعتناق الدين الجديد والى منعه من اعتداء قريش حتى وجدوا في هذه الدعوة فرصة نادرة لان يكونوا الانصار للنبي الذي بشر اليهود في يثرب بمقدمه ، وليحصلوا على زعيم ديني وسياسي يعيد الى بلدهم الهدوء والاطمئنان بعد ان عجزوا عن الاتفاق على الخضوع لزعيم من بينهم . وان كان هنالك من يرى انهم كانوا على وشك تعيين عبد الله بن ابي بن سلول الا ان استاذنا عبد الحميد المبادي يذهب الى انه لم « تكن هناك رغبة صادقة في تملكه » (١)

وبهنا في هذا المقام نناغث النظر خاصة الىبيعة العقبة الثانية ، فهي الميثاق الفعلي لقيام دولة المدينة . اذ فوق كونها معاهدة على الايمان بالله ورسوله ، فهي معاهدة سياسية عسكرية ، تضمنت في نصوصها مبدأ المسؤولية المشتركة بين صاحب الرسالة الاسلامية وبين انصاره من الخزرج والانس . ولقد حرص الطرفان على تأكيد هذه المسؤولية بين الحاكم والحكوم . فشروط الدعوة والايمان في هذه المعاهدة لم تقتصر على مجال الفكر والقول ، بل تعدته الى مجال العمل والتنفيذ . فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يطلب الى المسلم من يثرب ان يؤمن بقلبه وان يعلن ايمانه فحسب ، بل طلب اليه ان يمنعه بسيفه من اعتداء المعتدين منعه لذويه من النساء والبنين . كما ان مسلمي يثرب احتاطوا للامر بدورهم بان طلبوا الى الرسول الا يهجرهم عند بلوغه النصر وان يدافع عنهم ضد اعدائهم من اليهود وغير اليهود دفاعهم عنه ضد اعدائه . فقبل كل منهما ماطلب اليه الآخر . وبروي لنا « ابن اسحاق » تفاصيل هذه المعاهدة على لسان كعب وهو من وفد الانصار فيقول :

« قمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالتنا حتى اذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالتنا ليماد رسول الله صلعم نسلل نسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ومعنا امرأتان من نساءنا نسيبه بنت كعب ام عماره احدى نساء بنى مازن بن النجار واسماء بنت عمرو ابن عدى بن نابي احدى نساء بنى سلمه وهي ام منيع قال فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه الا انه احب ان يحضر امر ابن اخيه ويتوثق له . فلما جلس كان اول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال يامعشر الخزرج . . . ان محمدا منا حيث

(١) عبد الحميد العبادي - صور من التاريخ الاسلامي - العصر العربي

ص ٤٤ الاسكندرية ١٩٤٨

قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه . . . وهو في عز من قومه ومنعة في بلده وانه قد أبى الا الانحياز اليكم والحقوكم بكم فان كنتم ترون انكم وافون له فيما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك وان كنتم ترون انكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن فدعوه فانه في عز ومنعة من قومه وبلده قال فقلنا له قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت قال فتكلم رسول الله صلعم فتلا القرآن ودعا الى الله ورغب في الاسلام ثم قال ابايعكم على ان تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وابنائكم قال فاخذ البراء بن معرور بيده ثم قال . . نعم والذي بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما تمنع منه أئمتنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر قال فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله صلعم ابو الهيثم بن التيهان فقال يا رسول الله ان بيننا وبين الرجال جبالا وانا قاططوها يعني اليهود فهل عسيب ان نحن فعلنا ذلك ثم اظهرك الله ان ترجع الى قومك وتدعنا . قال فتبسم رسول الله صلعم ثم قال بل الدم الدم والهدم الهدم انتم منى وانا منكم احارب من حاربتم واسالم من سالمته (قال ابن هشام ويقال الهدم الهدم يعني الحرمة بقول حرمتي حرمتكم ودمي دمكم) . « (١)

٢ - ولكن هذه المسئولية السياسية التي تعلق عليها النبي والانصار من اهل يثرب لا تمتد جذورها الى مصدر العقد الاجتماعى فحسب ، بل وجدت في الواقع ارضا خصبة في تعاليم الدين الاسلامى ذاته وفي منهج تنفيذها على يدى سيدنا محمد . اذ لم يهاجر سيدنا محمد واتباعه الى يثرب حتى اعلن بكتابه الدستورى المشهور الذى نشره بين المهاجرين والانصار واليهود قيام الامة الاسلامية وتفردا بين كافة الامم . فهو يقول :

« هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريتى (واهل) يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، انهم امة واحدة من دون الناس » (٢)

وفي اللحظة التي اعلن فيها قيام الامة الاسلامية ، اعلن ايضا اشتغالها في دولة المدينة الاسلامية التي تنظم شئونها الداخلية والخارجية وتصون وجودها .

(١) السيرة النبوية لابن هشام (امر العقبة الثانية ص ٢ ص ٨٤)

(٢) محمد حميد الله الحيدر آبادى - مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوى والخلافة لرشيده ص ١ القاهرة - لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ١٩٦١

ولقد فصل هذا الكتاب الدستوري مبادئ الحكم في الدولة الجديدة . وأهم ما يلفت أنظارنا نحن الذين نعيش في عهدود الاستراكية وشيوع الخدمة الاجتماعية ، ان دولة المدينة لم تكن دولة بوليسية تحفظ لمن عنده ما عنده من حياة ومال فحسب ، بل قررت في وضوح تام مبادئ المسئولية السياسية والاجتماعية .

ولقد اتخذ الضمان الاجتماعى شكلين يسيران جنباً الى جنب ويكمل بعضهما بعضاً . فهناك ضمان قبلى داخلى ل قبيلة او طائفة فالمهاجرون من قريش ، وقبائل الاوس والخزرج ، مسئول كل منها عن أفرادها في سرانها وضرائها « فهم على ربتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين » والنظام الاسلامى في هذا يقرر تقليداً عربياً سابقاً ، وذلك لان كل قبيلة كانت بحكم عصبيتها مسئولة عن سلوك أفرادها في الخير والشر ، في النصر والقهر ، في القدية والثأر .

اما الجديد في مبدأ المسئولية السياسية والاجتماعية ، الذى اضافته الاسلام الى نظم العرب ، فهو التسامى عن اتخاذ مبدأ العصبية القبلية مقراً وحده لعلاقات العرب ، واستفراقه في مبدأ اوسع واعم وهو مبدأ الاخوة في الدين . فاعضاء الامة الاسلامية الجديدة لم يعودوا قبائل متفرقة كما كانوا من قبل ، بل اصبحوا مواطنين في الدولة الاسلامية ، لا يتقرر حق مواظنتهم بالميلاد او الشرف او الدم بل يتقرر بالاشتراك في الايمان والجهاد في سبيله . ومن ثم كانت الدولة الاسلامية مسئولة عن مواظنتها كافة . فيقرر النبى :

« ان المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم ان يعطوه بالمعروف في فداء او عقل »

« وان المؤمنين المتقين (ايديهم) على اكل من بقى منهم او ابتغى دسيسة ظلم او اتما او عدواناً او فساداً بين المؤمنين وان ايديهم عليه جميعاً ولو كان ولد احدثهم . »

« وان سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم . »

« وان المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله . »

ويقرر النبى في كتابه الدستورى ، غير ذلك من القرارات التى تنبعث جميعاً عن فكرة واحدة ، فكرة الاخوة والمساواة الفعلية بين المسلمين . والنبى لا ينشر هذه القرارات على الناس ويتركها لاختيارهم يتبعونها او يهجرونها كما يشاءون ، بل يعلن ان الامر في تنفيذها قد آل اليه وحده ، فهو صاحب السيادة الاوحد الذى يقضى باسم الله فيما يشتر من خلاف بين المؤمنين .

ولذا نرى ان المسئولية السياسية والاجتماعية بين المواطنين في دولة المدينة قد تضمنتها سيادة الدولة وسلطانها ، القائم على احكام الدين والذي يشمل برعايته كل من يستظل به حتى من غير المسلمين طالما يرعون نواميسه .

(٢)

اما المبدأ الثالث وهو مبدأ القوة فيظهر في المرحلة الثالثة وهي مرحلة جديرة بالاهتمام لان أسلوب الجماعة الاسلامية قد اتخذ طابع القوة المادية الى جانب القوة الروحية . ففي العهد المكي من الدعوة لم يكن في وسع سيدنا محمد الا ان يلجأ لوسائل سلمية امام اضطهاد قريش ، فيقبل الهجرة لاتباعه الى الحبشة ، ويقبل الحصار الاقتصادي والاجتماعي معبنى هاشم وبنى المطلب الذي فرضته قريش في صحيفتها المعروفة . اما وقد أسس دولة المدينة وأصبح المجتمع الاسلامي الجديد قوة تستطيع ان تقف على قدميها في وجه العدو ، فلا حاجة اذن الى مقابلة الاذى بالحلم ومقابلة عدم التسامح بالرضا . فالعنف والقوة ترد بالقوة . وتقرر هذا الاتجاه الجديد بوحي من عند الله في كتابه المقدس . اذا امر الله نبيه بالقتال دفاعا لا اعتداء .

وان قتال المشركين والدفاع عن دولة المسلمين الجديدة بالسيف قد عرف بين المسلمين بالفتوح وعرفت المواقع المشهورة بين المسلمين والمشركين بالفتوحات . وكلنا يعرف غزوات بدر واحد والاحزاب (الخندق) والحديبية وفتح مكة وحنين والطائف وغيرها . فالفتوح اذن أصبح سلاحا من اسلحة بناء الدولة العربية الاسلامية والمحافظة عليها . ولقد كان أسلوبا حاسما في بناء الدولة الاسلامية . ويلاحظ المطلع على تاريخ هذه الفتوحات انها كانت سجلا عنيفا بين الطرفين ملئت صفحته بالدموع والدماء ، وملئت بالام انسانية ابعد من هذه الامم وذلك لان العقيدة الجديدة كثيرا ما فرقت بين الاب وابنه والاخ واخيه والام وابنها . فالمهاجرون الى يثرب لم يكونوا سوى قطع من قلوب قريش ودمائها . ورغم كل هذه المحن التي ابتلى بها الفريقان لم يكونا ليستقرا على شيء سوى ابتغاء النصر الاخير . اذ ليس بينهما من وسط للطريق يلتقيان فيه . فليس بين التوحيد والشرك وسط ، وليس بين دولة الاسلام ودولة قريش من النقاء سوى الفناء او التسليم . وكانت النتيجة ان سلمت دولة قريش وان دخلت في دونه الاسلام العامة تحت لواء الدولة العربية الجديدة . وما كان تسليمها الا نتيجة الهزيمة في الميدان ، ولقد تبعها القبائل العربية المشهورة مثل ثقيف وهوازن بعد ان غلبت على امرها امام قوة سيدنا محمد التي ما كانت لتقهر قهرا جزئيا الا لتنتصر انتصارا عاما . فسيف الاسلام كان الفيصل النهائي في قيام الدولة العربية القومية .

فما معنى هذا في نشأة الدولة العربية ان صلة الغزو بقيام الدولة العربية
 يذكرنا في هذه المرحلة من مراحل تكوينها بما ذهب اليه دعاة مذهب القوة في
 نشأة الدولة خاصة «جمباوفتن» (Guimpowicz) وتلميذه «اوبنيمر»
 (Oppenheimer) من « أن الدولة أثناء المراحل الاولى من تكوينها هي نظام
 اجتماعي فرضته جماعة منتصرة من الناس على جماعة منهزمة مدفوعة بالفرض
 الوحيد وهو تنظيم سلطان الجماعة المنتصرة على الجماعة المنهزمة . « ولكن
 بهننا ان نسال في هذا المقام عن ماهية هذه القوة التي استخدمها المسلمون في
 تأسيس دولتهم . اهي قوة مادية وحسب ؟ اهي قوة السيف وحده ؟ ام تان
 السيف اداة في يد قوة اعظم منه ، هي القوة المعنوية للجماعة الاسلامية الناشئة؟
 ان مثل هذا السؤال يبين لنا ان القوة المادية ما هي الا تعبير لقوة معنوية
 متفجرة . فالسيف الذي استعمله المسلمون لم يكن من طراز غير الطراز
 الذي استعمله المشركون . وسيف المسلمين لم يكن كسيفنا جديدا مثل
 القنبلة الذرية في ايماننا يستخدمها قوم ليبيدوا بها قوما آخرين في طرفه
 عين ، بل كان الاداة التقليدية للحروب العربية . وانما الكشف الجديد
 فيما دار من غزوات بين المسلمين والمشركين هو الدين الاسلامي في بدئه وما
 اثار من ايمان قوى بين المؤمنين ومن اضهاد لا يقل قوة عن ذلك الايمان .
 ولقد كانت الغلبة آخر الامر للايمان على الانكار والكفر . ولقد كان السيف
 في يد المؤمن افعل منه في يد الكافر . لماذا ؟

ان ذلك يرجع الى ان الدين الاسلامي كان ثورة روحية واجتماعية ،
 ولقد هزت هذه الثورة نفوس المسلمين هزا عنيفا ، وفي هذه الهزة النفسية
 خلصوا من كثير من النظم والتقاليد التي كانت تملأ نفوس غيرهم من العرب
 بالضباب ، وتثقل ارواحهم بأعباء ثقال . فانطلقت نفوس المسلمين من مقالها
 واصبحت حرة تفيض بالحيوية في عالم المثل الدينية والاجتماعية الجديدة .
 واذ تخلص المسلمون من عادات العرب وخرافاتها ومن التقاليد الثقيلة الموروثة
 تخلصوا في الوقت نفسه من الخوف من الموت . وكان هذا مصدر قوتهم
 وتفوقهم على اعدائهم . فالمسلمون كافراد كانوا يرون ان العيش في ظل
 الاسلام عزة في الدنيا ونعيم في الآخرة . ولقد جاء الاسلام بنظام يضمن للمسلم
 اتصال الدنيا بالآخرة ، ويضمن له الحياة المقيمة ، فاستشهد المسلم في الجهاد
 ليس فناء بل بقاء سرمديا . ويبدو ذلك حين نلاحظ ما كان الفريقان
 المتحاربان يستعملانه من شعار في الغزوات وما كانا يتخذانه من دوافع لحفز
 الهمم على القتال ، فالمسلمون حرصوا على ان يلجؤوا الى الله في التماسهم
 النصر ، اما المشركون فقد التجؤوا الى دوافع محسوسة من دوافع الحماسة
 العربية التقليدية . فيقول ابن اسحق عن مناقشة الرسول ربه النصر في
 يوم بدر :

« ثم عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف ، ورجع الى العريش فدخله ، ومعه أبو بكر الصديق ، ليس معه فيه غيره ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويتحول فيما يقول : اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لاتعبد واو أبو بكر يقول يا نبي الله : بعض مناشدتك ربك ، فان الله منجز لك ما وعده . وقد خفق رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة وهو في العريش ، ثم انتبه فقال : ابشر يا ابا بكر ، اتاك نصر الله . هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده ، على ثاياه النقع » (١)

وقال ابن اسحق أيضا :

« ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس فحرضهم وقال : والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، الا ادخله الله الجنة . فقال عمر بن الحمام ، اخو بنى سلمه ، وفي يده ثمرات يأكلهن : يخ بخ ، أقما بينى وبين ان ادخل الجنة الا ان يقتلنى هؤلاء ، ثم قذف الثمرات من يده واخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل » (٢)

ويمكننا ان نلمس الفرق بين هذا الدافع الدينى الجديد فى ميدان الحرب وبين غيره من الدوافع الحماسية التى نراها بين الفريق الآخر حين نسمع فى «أحد» هندا بنت عتبة وهى تحرض أهل مكة على القتال ، اذ يقول ابن اسحق :

« فلما التقى الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، قامت هند بنت عتبة فى النسوة اللاتى معها ، وأخذت الدفوف يضربن بها خلف الرجال ويحرضنهم ، فقالت هند فيما تقول :

وبها بنى عبد الدار وبها حماة الادبار
ضربا بكل بتار

وتقول :

ان تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
او تدبروا نغارق فراق غير وامق (٣)

ونرى الفرق أيضا حين نشهد فى غزوة « حنين » ان مالك بن عوف النضرى قد ساق مع الناس « اموالهم وابنائهم ونساءهم » ليجعل « خلف كل رجل

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢ ص ٢٧٩)

(٢) السيرة (٢ ص ٢٧٩)

(٣) السيرة (٣ ص ٧٢)

منهم أهله وماله ليقاتل عنهم « (١) .

وهكذا نرى ان الاسلام قد اضاف الى الفتوة العربية في ذلك الوقت عاملا روحيا الهيبها وجعلها تؤتى أروع ماتستطيع النفس البشرية في عالم الشجاعة والتضحية بالنفس . وبذا يصدق ما ذهب اليه « كارليل » (Carlyle) من ان الجيوش التى تخشى الله هى خير الجيوش ، وما لاحظه « والترابجت » « من ان الناس كانوا ينحكون من كرومويل حين كان يقول لجيوشه ، ثقوا بالله واحفظوا البارود جافا : على حين ان الثقة بالله كانت تعادل البارود في قوتها ان لم تفقه . وذلك لان التركيز العظيم للشعور المتزن يجعل الناس يجراون على اقتحام أى شئ وفعل أى شئ » (٢) .

ولكن لم يقف أثر الدين الاسلامى في الجماعة الاسلامية وفي مواطنى الدولة الجديدة عند تزويدهم بالقوة المستمدة من عاملى الخوف من الله وعدم الخوف من الموت ، بل في الواقع امتد الى ابعد من ذلك . فقد خلق لنا مجتمعا موحدنا متماسكا جاءت وحدته وتماسكه نتيجة لاجتماع المسلمين على معتقدات واحدة ومبادئ واحدة وسلوك واحد مما ربط كما ذكرنا بين اذهانهم ونسجها جميعا نسجا موحدنا متماسكا جعلهم يفكرون ويسلكون ويعملون في حياة السلم والحرب كما يفكر الرجل الواحد ويسلك ويعمل . وفوق ذلك فان هذا التوحيد والتماسك بين افراد المجتمع الاسلامى قد قام — كما ذكرنا ايضا — على مبادئ اخلاقية واجتماعية راقية نبيلة . ومن ثم بلغ اوج القوة المادية والمعنوية بالنسبة لمجتمعات العرب المحيطة التى اعوزها هذا التوحد وهذا التماسك كما اعوزتها المبادئ العالية التى ان استند اليها مجتمع وعمل بها استطاع ان يتغلب على المجتمعات المفككة الضعيفة . وفي هذا نرى تطبيق نظرية « والترابجت » التى ساقها في كتابه « الطبيعة والسياسة » اذ ذهب الى انه في التنازع على البقاء بين الناس تغلب الجماعة الفرد ، وتغلب الجماعة المتسقة الجماعة المفككة ، وفي تنازع الجماعات المتسقة تغلب الجماعة الآخذة بمبادئ ارقى وانبل . وفي هذا الصراع بين الجماعات خاصة في العصور الاولى من تاريخ البشر نشأت الامم وقامت الدول بما فرضه الغالب على المغلوب من اتباع لتظيمه وخضوع لسלטانه .

(١) السيرة (ح ٤ ص ٨١)

Walter Bagehot — *Physics and Politics* P. 50

(٢)

ولكن من الجدير أن تؤكد بعد الحديث عن المبادئ الثلاثة السياسية التي لاحظنا فعلها في نشوء الدولة العربية القومية أنه ما كان في وسع هذه المبادئ أن تعمل في الفراغ . وإنما اكتسبت حيويتها ونفوذها لا من الناحية النظرية العامة بل من ناحية العامل الشخصي الذي جعلها تعيش بين العرب في حياتهم الخاصة والعامة . ولقد تمثل هذا العامل الشخصي في محمد عليه الصلاة والسلام . ففي تفكيره وفي سلوكه ، وفي قراراته وفي عمله ، كان المثل الحي لما انطوت عليه رسالته السماوية من تنظيم اجتماعي .

فمنذ البدء نشاهد رجلا مصمما على انشاء مجتمع جديد ، وبصيرا بمعالجه ومنهاج بنيانه ، ومدركا للحقيقة العظيمة أن المجتمع الجديد لن يقوم الا على حساب المجتمع القديم . ويبدو هذا الصراع بين نظام يسعى الى الميلاد ونظام يستغنى واد الوليد المتطلع الى الحياة ، من قلق السادة في قريش على وحدة مجتمعهم وتوكيدهم الشكوى بأن محمدا لا يحط من قدر آلهتهم وعقولهم فحسب بل يفرق جماعتهم . ولقد ابانوا له ذلك في حديث عام معه رجاء عدوله عن دعوته ، متخذين الاقتناع وسيلتهم الى ذلك بدل التهديد والوعيد . والحديث الآتي كما يورده ابن هشام يشتمل على هذا الاتهام :

« فقالوا له يا محمد انا قد بعثنا اليك لنكلمك وانا والله ما نعلم رجلا من العرب ادخل على قومه ما ادخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الالهة وسفهت الاحلام وفرقت الجماعة فما بقي امر قبيح الا قد جئته فيما بيننا وبينك او كما قالوا فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالا وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا وان كان هذا الذي ياتيكم رؤيا تراه قد غلب عليك وكانوا يسمون التابع من الجن رؤيا فربما كان ذلك بدلنا اموالنا في طاب الطب لك حتى تبرئك منه او نعدرك فيك فقال لهم رسول الله صلعم ما بي ماتقولون ما جئت بما جئتمكم به اطلب اموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى اليكم رسولا وانزل على كتابا وامرني أن اكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فان تقبلوا مني ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والاخرة وان تردوه على اصبر لامر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم او كما قال صلعم » (١)

(١) السيرة لابن هشام (ح ١ مادار بين رسول الله صلعم وبين رؤساء

قريش)

وفي الواقع ان البون كان شاسعا بين وجهتى نظر الطرفين وما كان لاقتناع
 اذهاب ان يفضى بهما الى التقاء اختياري . وما كان ليهم محمدا ان تتفرق
 جماعة مكة اذا هي اصرت على مواصلة نطاقها القديم والتمسك باسسه الوثنية
 لان محمدا كان يدرك انه بالدين الاسلامى سيستطيع توحيد هذا التفرق
 وخلق جماعة جديدة متماسكة على اسس جديدة ، اقدر على مغالبة الحياة
 من الاولى ، واقدر على ان تهيبء لمكة سلطانا واسعا يولد مركزها بين قبائل
 العرب وغير العرب ويحميها من اخطار الغزو التى كانت تتهددها قبل الاسلام
 من القبائل المنافسة ومن الحملات الخارجية مثل حملة الفيل المشهورة . فهو
 من البدء كان شاعرا بان الدين الذى اوحى اليه لن يكون دين دولة او دينا فى
 دولة وانما سيكون فى ذاته دولة . ولهذا حين عاد اشراف مكة الى محاولة
 اقتناعه بترك دعوته ، وجاءوا الى ابى طالب يستعينون به على ذلك عبر محمد
 عن هذا المطمح العظيم ، وهو فى هذا التعبير يناقض ماراه بعض المحدثين من
 المنكرين (١) بان محمدا كان صاحب رسالة ولم يكن صاحب دولة . فابن
 عسما يقول :

« فبعث اليه ابو طالب فجاءه فقال يا ابن اخى هؤلاء اشراف قومك
 قد اجتمعوا ليعطوك وليأخذوا منك قال فقال رسول الله صلعم نعم
 كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم قال
 فقال ابو جهل نعم وايبك وعشر كلمات قال تقوارن لا اله الا الله وتخلعون
 ما تعبدون من دونه قال فصفقوا بايديهم ثم قالوا اتريد يا محمد ان
 تجعل الآلهة الها واحدا ان امركم لعجب قال ثم قال بعضهم لبعض انه
 والله ما هذا الرجل يعطيك شيئا مما تريدون فانطلقوا وامضوا على
 دين آباؤكم حتى يحكم الله بينكم وبينه » (٢) .

ولكن القوم ما كانوا ليعبئوا بما يعدهم محمد من ملك العرب والعجم ، فهم
 احرص على صيانة سلطانهم الراهن المستتب من ان يجرؤا وراء تأسيس دولة
 خيالية . وهم قوم واقعيون يعرفون ماكانوا يجنون من حكمهم لمكة ، والهيمنة
 على جميع انواع النشاط المتصلة بعبادة الاوثان ، وولاية مناصب الدولة
 ووظائفها مثل السدانة والسقاية والرفادة والعقاب والندوة والقيادة والمشورة
 والاشفاق والاعنة والسفارة والاسار والحكومة والاموال المحجرة والعمارة (٣)

(١) على عبد الرازق - الاسلام واصول الحكم (الكتاب الثانى - الباب
 الثالث) القاهرة سنة ١٩٢٥ (الطبعة الثانية)

(٢) السيرة لابن هشام (ح ٢ ص ٥٤ - ٥٩)

(٣) جورجى زيدان - تاريخ التمدن الاسلامى (ح ١ ص ٢٢ - ٢٤)

القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩٥٢

فما كانوا ليتركوا غنما محققا يستمتعون به الى غنم موعود لا يتحقق الا بهجرانهم ماضيهم وحاضرهم وصالحهم المحسوس . وعلى قدر ما للواقعية من اثر محمود في توجيه النظم و حياة الافراد والمجتمعات ، الا انها كثيرا ما تسمى أصحابها عن ادراك ما في آراء من يسمون ازدراء بالخياليين من خصوبة وما تنطوى عليه من امكانيات الخلق والابداع . فما كان منهم الا ان اتبعوا الاقتناع بالتهديد والوعيد ، وهم في ذلك مخلصون لمنطق عقيدتهم وصالحهم الخاص . الا ان المبشر بالدين الجديد والدولة الجديدة لم يكن اقل منهم اخلاصا لعقيدته . فهو اول المؤمنين برسائله وهو اول المؤمنين بتنفيذها ، فلا جدوى من ايمان لا يصحبه تنفيذ ، او كما قد كان يقول سقراط ، من معرفة لا تراخفهما ارادة وفعل ، فالمعرفة الصادقة في ذاتها ارادة العمل . وتبين شخصية الرسول وما قدر لها من اثر في تنفيذ الرسالة الاسلامية من رده على عمه ابي طالب حين عظم عليه « فراق قومه وعداوتهم ولم يطلب نفسا باسلام رسول الله صلعم ولا خذلانه » اذ قال قوله المشهور « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك فيه ما تركته » (١)

لقد كان محمد اذن اول المؤمنين بالله ، وكان محمد اول المؤمنين ببسط سلطان الله على الارض . ولكن كيف يبسط ذلك السلطان وكيف ينفذ رسالته ؟ ان ذلك العمل الهائل لن يتم الا اذا كان محمد نفسه المثل الحي لرسائله والقدوة المثلى لقومه . ولم يكن ذلك امرا عسيرا على محمد اذ نشأ نشأة اهله لحمل هذه الامانة العظيمة التي ائتمنه عليها ربه . فشخصيته التي تمت جوانبها واكتملت ذاتياتها عند نزول الوحي تجاوبت تجاوبا فعالا والمهمة الجديدة . ولذا لم تكن لدى محمد حاجة الى ان يغير اسلوب سلوكه بعد الرسالة ، فاعماله في نشر الدين وبناء الدولة ليست سوى امتداد لمنهجه في حياته الخاصة قبل ذلك . فعقريه محمد تتجلى في جمعه المنسجم بين صفات السيد وصفات العامل . اذ جاء من أسرة لها السيادة فورث عنها النبل والشرف ولكنه جاء من فرع لم تجتمع له السيادة الاقتصادية الى جانب السيادة في الحكم ، فكان عليه منذ الطفولة ان يعمل ليكسب قوته وان يكتشف اثناء جهاده في سبيل العيش ان السيادة الحقيقية لا تقوم الا على العمل ، وان العمل وحده هو اساس السيادة في الدولة الجديدة . فراعى الفهم في الطفولة والعامل في تجارة خديجة بين مكة والشام في مقتبل العمر وجد امرا طبيعيا ان يواصل اسلوبه بعد البعثة فيكون بناء في مسجد المدينة وان يكون جنديا في غزوات الاسلام . فابن هشام يصف لنا وصول النبي الى المدينة واخذه في بناء مسجده ومساكنه فيقول :

(١) السيرة لابن هشام (١)

« قال : فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبني مسجدا ،
ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي أيوب حتى بنى مسجده
ومسكنه ، فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لرغب المسلمين
في العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والانصار . ودأبوا فيه ، فقال
قائل من المسلمين :

لئن تعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل (١)

وان هذا النبي الذي قاد المسلمين الى الاشتراك في بناء المسجد بوحي من
عمله ، قادهم كذلك في ساحات القتال ، وكانت قيادته لهم في اوقات الهزيمة
لا تقل روعة عن قيادته لهم في اوقات النصر . اذ كان أدري قومه بتقارب الأيام
وأعمقهم ادراكا لما تتطلبه المحن من احتمال لا يقل في قيمته عما يبديه المرء من
شجاعة في اقتحام الاخطار . ولذا كان للمسلمين بعد « احد » خير العاملين على
تقوية روحهم المعنوية وصيانتها من الوهن والضعف بسبب الهزيمة التي لحقتهم
في ميدان القتال وما أحدثت من بلاء وجراح واستشهاد . كما كان عند فرار
المسلمين في غزوة « حنين » حين التقوا بهوازن المنقذ الذي حول الهزيمة
الى نصر بثباته في المحنة وقدرته على القيادة في اخرج الازمات وادعاها الى الفرع
والولع . ونحن نرى في الوصف الاتي الذي يسوقه ابن اسحق عن موقف النبي
وهو يشاهد فرار المسلمين ويدعوهم الى معاودة النزال صورة ناطقة لفن
القيادة في الجو العاصف حين يمتحن القائد اقصى امتحان :

« قال ابن اسحق : وحدثني الزهري ، عن كثير بن العباس عن ابيه
العباس بن عبد المطلب ، قال :
اتى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بحكمة بغلته البيضاء
قد شجرتها بها ، قال : وكنت امرا جسيما شديد الصوت ، قال :
ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين رأى ما رأى من الناس
اين الناس ايها الناس ؟ فلي ارن الناس يا وون على شيء ، فقال يا عباس ،
اصرخ ، يامعشر الانصار : يامعشر اصحاب السمرة ، قال : فأجابوا :
لييك لييك . قال : فيذهب الرجل ليشنى بعيره ، فلا يقدر على ذلك ،
فياخذ درعه ، فيقذفها في عنقه ، وياخذ سيفه وترسه ، ويقتمح عن
بعيره ويخلى سبيله ، فيؤم الصوت حتى ينتهي الى رسول الله صلى
الله عليه وسلم . حتى اذا اجتمع اليه منهم مئة ، استقبلوا الناس ،
فاقتتلوا وكانت الدعوى اول ما كانت : بالانصار . ثم خلصت اخيرا :
بالخزرج . وكانوا صبورا عند الحرب ، فأشرف رسول الله صلى الله

(١) السيرة لابن هشام (٢٠ ص ١٤١)

عليه وسلم في ركائبه . فنظر الى مجتلد القوم وهم يجتلدون ، فقال :
الآن حمى الوطيس » (١)

وهكذا كانت نشأة محمد في بيت من بيوت السيادة علمه حكم غيره ،
وخضوعه لتجربة في كسب العيش علمته كيف يصفى الى غيره عاملين متكاملين
لتكوين الزعيم المثالي . فلقد كان اجتماع هذين العاملين داعيا الى مرونة
التفكير والسلوك والقدرة على معالجة الناس والامور معالجة بلغت كمال التوفيق
حتى لم يرتب احد في أنها موهوبة . ولعل هذه الناحية هي ابرز ما تتميز به
تصرفاته في تدبير شئون الجماعات والأفراد في ذال الدولة الجديدة التي اقامها
والتي كانت مصالحة هذه الدولة هي التي تقرر هذه لمصروفات دون التزام
سنة جامد او منهج نظري محدد . وربما كان في ذلك ما يفسر لنا موقفه من
المؤاخاة بين المسلمين والمساواة بين المهاجرين والانصار اول تأسيس الدولة في
المدينة ، وموقفه من الانصار والمؤلفة قلوبهم عندما اشرفت الدولة العربية
الاسلامية على التمام . فصالح الاسلام هو الذي قرر الخطة الاولى كما قرر
الخطة الاخيرة . ويبدو هذا جليا من قول الرسول الانصار في تلك الحالة
الثانية حينما وجد الانصار في انفسهم شيئا من ايثاره المؤلفة قلوبهم عليهم :

« يا معشر الانصار : ما قالة بلغتني عنكم ، وجددة وجدتموها على في
انفسكم ألم أنكم ضللا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، واعداء
فألف الله بين قلوبكم ! قانوا : بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل . ثم قال :
الا تجيبونني يا معشر الانصار قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ الله
ولرسوله المن والفضل . قال صلى الله عليه وسلم : أما والله لو شئتم
لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم : اتينا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا
فنصرناك ، وطريدا فأوينناك ، وعائلا فأسينناك . اوجدتم يا معشر
الانصار في انفسكم ولعانة من الدنيا نالفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتهم
الى اسلامكم ، الا ترضون يا معشر الانصار ، أن يذهب الناس بالشاة
والبعير ، وترجموا برسول الله الى رجالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده
لولا الهجرة لكنت أمرا من الانصار ، واو سلك الناس شعبا وسلكت
الانصار شعبا ، لسلكت شعب الانصار . اللهم ارحم الانصار ، وابناء
أبناء الانصار » (١)

وان كان صالح الاسلام هو الذي يقرر تصرفات الرسول حسب اختلاف
الظروف وفهمه العميق لاخلاق العرب ، فانه لم يكن متعسفا في قراراته او

(١) السيرة لابن هشام (ح ٤ ص ٨٧)

(١) السيرة لابن هشام (ح ٤ ص ١٤٢ - ١٤٣)

متفردا بها . فهو في هذا الخطاب الرائع الذي وجهه الى الانصار يحرص على تبرير تصرفه في المفاضلة بينهم وبين قريش وقبائل العرب الاخرى معتمدا في ذلك على ما امتاز به اهل المدينة من ايثار وما عرف به اهل مكة من اثره . ويحرصه على هذا التبرير يدلنا على انه حاكم يتفنى ببناء حكمه على رضى المحكومين لا فرضه فرضا قاهرا تعسفا . وان كان في هذا الموقف قد برر فعله بعد انتهائه ، الا انه في غير ذلك من المواقف كان لا يأتى أمرا يمس الصالح العام الا اذا تزود بمشورة المسامحين غير مفرق بين رأى كبير فيهم او صغير . ومتى استمع الى جوانب الرأى المختلفة واهتدى الى قرار معين التزم ذلك القرار بعزم باهر ، وعد تنفيذه جزءا لا يتجزأ من سيادته على قومه في دولة الاسلام الجديدة . فما كان رده على من دفعه الى الخروج لمقابلة قريش في غزوة «أحد» حين ظنوا انهم بمشورتهم قد استكروهه على ذلك الا أن قال قوله الباتر ، « ما ينهى لنى اذا ليس لامته ان يضعها حتى يقاتل » (١) .

(١) السيرة لابن هشام (ج ٢ ص ٦٨) .
(السيرة النبوية لابن هشام حققها وضبطها وشرحها ووضع فهرسها
مصطفى السقا و ابراهيم الايبارى وعبد الحفيظ شلبى القاهرة
١٩٣٦ ج ٤)